وجوه الخطاب الإصلاحي في تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس

Faces of the Reformist Discourse in the Quranic Exegesis of Imam Abdelhamid Ibn Badis

Wajah Wacana Reformis Dalam Tafsiran al-Quran Imam Abdelhamid Ibn Badis

باي زكوب عبد العالي*، و ليث سعود جاسم**

ملخّص

يعدّ عبد الحميد بن باديس أحد العلماء الجزائريين البارزين بالإصلاح الاجتماعي، حيث كان حافزًا له للقيام بتفسير عصريّ لآيات قرآنية مختارة، ملائمة لكل فئات، وطبقات المجتمع الجزائري يومئذ. ولقد فرض الواقع الجزائري المرّ إبّان فترة الاحتلال الفرنسي على ابن باديس سلوكَ سياسة تغيير الخطاب الإسلامي الإصلاحي من حين لآخر قاصدا بذلك مواجهة الاحتلال الفرنسي الغاشم الذي كان يسعى إلى طمس ثوابت الأمّة الجزائرية، وخرق تاريخها، وهُويّتها، وثقافتها، ووحدتها الدينيّة، واللّغوية من خلال عدّة جبهات ومجالات. يهدف هذا البحث إلى استنباط وجوه خطاب الإمام ابن باديس الإصلاحي في التفسير، فيبدأ أوّلاً بالحديث عن مفهوم الخطاب وأهميّته في الإصلاح؛ ثم يتناول بالدراسة والتحليل خطاب ابن باديس الإصلاحي على وجوه رئيسة ستة وهي: الخطاب العقدي، والخطاب الفقهي، والخطاب التهذيبي، والخطاب التذكيري، والخطاب التاريخي، والخطاب الاجتماعي؛ مستعينا بالمنهج الوصفي والتحليلي والاستقرائي.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد بن باديس، وجوه الخطاب الإصلاحي، الإصلاح الاجتماعي، الخطاب الإسلامي، الثوابت.

---

* طالب دكتوراه في قسم دراسات القرآن والسنة الجامعة الإسلامية العالمية الماليزية.

** الأستاذ المشارك في قسم دراسات القرآن والسنة الجامعة الإسلامية العالمية الماليزية.

Abstract

Imam Abdelhamid Ibn Badis (1889-1940) was a prominent Algerian scholar known for his discourses on social reform. He contributed to social reform by undertaking modern interpretations of selected verses of the *Qur'an*, thereby making the teachings more relevant to the various groups and sections of Algerian society, which was then experiencing the harsh reality of French occupation. Imam Ibn Badis' involvement in the Islamic reformist discourse was motivated by his desire to challenge the French occupation, which he regarded as attempting to obliterate the foundations of the Algerian nation in several areas, particularly those affecting its history, identity, culture, and religious and linguistic unity. This paper is a study of six aspects of Imam Ibn Badis' reformist discourse: doctrinal, jurisprudential, ethical, exhortative, historical and social. It makes use of descriptive, analytical and inductive methods to examine the concepts in Ibn Badis' messages and to discuss the significance of his contributions to Algerian social reform.

Key words: Abdelhamid bin Badis, The Faces of the Reformist Discourse, Social Reform, Te Islamic Discourse, Foundations.

Abstrak

Abdelhamid bin Badis adalah seorang ulama Algeria yang terkemuka dan terkenal bagi reformasi sosial beliau. Beliau menyumbang kepada reformasi sosial melalui cara mengambil tafsiran moden ayat-ayat terpilih al-Quran dengan cara yang sesuai untuk semua jenis kumpulan dan seksyen masyarakat Algeria pada masa itu. Realiti pahit Algeria semasa tempoh penjajahan Perancis yang dikenakan ke atas Ibn Badis menjalankan polisi mengubah wacana reformis Islam dari masa ke semasa dengan niat untuk menghadapi kekejaman penjajahan Perancis yang telah mencuba untuk memusnahkan asasnya Negara Algeria; dan mengoyak sejarah, identiti, budaya dan perpaduan agama dan bahasanya melalui beberapa bidang. Kajian ini bertujuan untuk menciptakan wajah-wajah mesej reformis Imam Ibn Badis dalam tafsirannya; bermula dengan menghurai konsep mesej dan kepentingannya dalam pembaharuan dan kemudian diikuti oleh kajian dan analisis mesej reformis Imam Ibn Badis di bawah enam aspek utama: wacana doktrin, wacana yurisprudensi, wacana etika, wacana peringatan, wacana sejarah dan wacana

sosial. Kaedah penyelidikan yang digunakan dalam kajian termasuk pendekatan deskriptif, analitikal dan induktif.

Kata Kunci: Abdelhamid bin Badis, wajah wacana reformis, reformasi sosial, wacana Islam, asas.

مقدمة

الحمد لله ربّ العاليمن، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين وبعد!

فإنّ من أهمّ شروط تحقيق التغيير والإصلاح في أي مجتمع إسلامي فَهمُ المسلم المخاطَب لطبيعة الخِطاب الموجَّه إليه فهماً دقيقاً يمكّنه من السّير بهدوء وبتريّث نحو الأهداف التي رسمها المخاطِب، ولا يتمّ هذا إلا بمعرفة المخاطِب للبيئة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسياسية والثقافية التي تُكوِّنُ المناخ الذي يعيش فيه المخاطَب، بمعنى أن يكون المخاطِب خبيراً بأمور قومه، مُطَّلِعاً على أحوال زمنه. حيث بعد هذه الخبرة والاطِّلاع يحَدِّدُ المخاطِب نوع الخطاب الذي يؤثّر في المخاطَب ويجعله يتفاعل ويتحرّك مع معطيات عصره مراعياً في ذلك (أي المخاطَب) الأطر التي حدّدها له المخاطِب.

إنّ الخطاب الناجح الذي يؤثّر في المخاطَب هو الخطاب الذي ينطلق من مقاصد حسنة، وأهداف مرسومة، وأفكار واضحة، ومعلومات كافية، بعيداً كل البعد عن الحِدّة والغضب، والطمع، وإثارة الشقاق والعناد بين فئات المخاطبين، وعدم التثبّت أو التبيّن في إيراد الأخبار، والتجريح في الأشخاص والهيئات. هذه هي أهمّ سمات الخطاب الناجح التي يجب على المخاطِب أن يضعها نصب عينيه قبل الخوض في أيّ خطاب إصلاحيّ. وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمّها، وهي التي أمر الله بها رسوله ρ عند تكليفه بتبليغ ما أنزل إليه من ربّه في قوله تعالى ذِكْرُهُ: **[يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ]** المدّثّر: [1-7].

الصفة الأولى التي ينبغي أن تتوافر في حاملي الخطاب هي: استشعار بأنّ ربّه الذي دعاه ليقوم بهذه النّذارة هو الكبير، فيستصغر كل كيد، وكل قوّة، وكل عقبة؛ والصفة الثانية هي: طهارة القلب، والخُلُق، والعمل من الأدران والشوائب؛ والثالثة هي: هجران الرجس من الأخلاق والعادات؛ والرابعة هي: إنكار الذّات، وعدم المنّ بما يقدّمه من الجهد؛ والأخيرة هي: الصبر والثبات أمام هذه المعركة الشاقّة، واحتساب الأمر لله وحده

كما جاء في "ظلال القرآن"[1].

إذا تتبعنا أنواع الخطابات الإصلاحية التي كانت سائدة في القرن التاسع العشر والقرن العشرين سوف نجدها تختلف من منطقة لأخرى ومن وقت لآخر. ويبدو لي أن هذا التباين يعود إلى ثلاثة أسباب رئيسة، هي: التحديّات الخارجية، والتحديّات الداخلية، والمتكلّمون أنفسهم.

فالتحديّات الخارجية: بمعنى المؤثرات الخارجية التي تفرض على المصلح بإتباع خطاب معيّن لمواجهة الأخطار التي قد يتعرّض لها بلده فيتمزّق داخليّاً، وتسقط هيبته خارجيّاً. والتحديّات الداخلية: هي المؤثرات الداخلية المتمثلة في استفحال الفوضى داخل المجتمع بسبب عدم توافر الأمن السياسي والاقتصادي، مما يفرض على المخاطِب انتهاج طريق معيّن في خطاباته. وأما المتكلِّمُون أنفسهم: لكونهم أكثر العوامل أهمية في التأثير على الجماهير. فعلى قدر تكوينهم العلمي، ومدى فهمهم للإسلام، واستيعابهم للواقع المعاش، وتجاربهم الميدانية، وتفانيهم في العمل يكون الإصلاح والتغيير. وهذا يفرض عليهم أيضاً تحديد المسار الذي يسيرون عليه في خطاباتهم.

---

[1] لمزيد من التفاصيل، انظر: قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، (القاهرة، دار الشروق، ط17، 1992م)، مج6، ص 3754- 3755.

انطلاقاً من هذه الأسباب الرئيسة التي أفضت إلى تنوّع الخطابات الإسلامية والإصلاحية، نجد مِنَ العلماء الإصلاحيين مَنْ ركّز على الخطاب العقدي مثل: محمد بن عبد الوهاب (ت 1791م)، والجهادي مثل: الأمير عبد القادر (ت 1883م)، والسياسي مثل: جمال الدين الأفغاني (ت 1897م)، والتربوي والتعليمي مثل: محمد عبده (ت 1905م)، والعلمي مثل: طنطاوي جوهري (ت 1940م)، والحركي الدّعوي: مثل سيّد قطب (ت 1966م)، ، وهَلُمَّ جَرّاً.

لا شكّ أنّ الخطاب الإسلامي الذي يسهم في خدمة الأمّة الإسلاميّة هو الخطاب الذي لا يتنازل عن ثوابت الأمة الإسلامية ولا يبالي بالمبرّرات الزائفة، والمساومات المغرِية، لأنّ ثوابت الأمّة الإسلامية فوق كل اعتبار، وعليها تقوم شخصية الفرد المسلم الملتزم وكيان المجتمع الإسلامي، والتلاعب بهذه الثوابت يعني التلاعب بمصير أمّة آمنت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبسيّدنا محمّدٍ ρ نبيّاً ورسولاً طيلة أربعة عشر قرناً.

إنّ الثوابت كما ذكرها السّامرّائي هي التي "تتمثل في العقيدة، والعبادة، والحدود، والأحوال الشخصية. والمتغيّرات تتمثل في التعازير، والنظامين السياسي والإداري، والأحكام المبنية على العرف والعادات والمصلحة. ويخطئ من يقوم بنقل أشياء من دائرة الثوابت ويضعها في المتغيّرات، كما يخطئ ذات الخطأ من يفعل العكس"[2].

هذه جملة من الثوابت الإسلامية التي ينبغي لأيّ خطاب إسلامي إصلاحيّ أن يراعيها ويقف عند حدودها، والتي لا يجوز له أن يتعدّاها أو يتغافل عنها لمجرّد ادّعاء لا أساس له من الصّحّة، أو مساومة محتملة، وله في الوقت عينه أن يجتهد ببذل الوسع واستفراغ الطاقة في دائرة المتغيّرات إذا كان أهلاً لذلك. أما إذا انحرف الخطاب عن جادّته، فلا يجوز لنا تحميل الإسلام تبعاته.

حياة ابن باديس وعصره:

[2] السامرّائي، نعمان عبد الرزاق، **الثوابت والمتغيّرات**، (السعودية، دار أمية، ط1، 1992م)، ص 38، 39.

1. حياته:

هو الإمام المصلح عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس الصّنهاجي مؤسس الدّولة الصنهاجية التي حكمت مملكة القيروان في شمال إفريقيا بعد دولة الأغالبة ودولة الفاطميين. ولد سنة 1889م في الجزائر بمدينة قسنطينة تحديداً، ونشأ بها، أمّا عن سيرته العلميّة فقد تلقّى مبادئ العلوم، والتحق بجامع الزيتونة، ولما تخرج سافر لزيارة البلاد الشرقية، ولما عاد إلى وطنه اشتغل بالحركة الوطنية والدّفاع عن الجزائر، وعن اللّغة العربية، ومحاربة الاستعمار الفرنسي، واشتغل بالعلوم الدينية، والصحافة، والتحرير في الصحف، وشارك في تأسيس جريدة النّجاح، وفي سنة 1926م أنشأ جريدة المنتقد، وتولى رئاسة تحريرها، ولما عطّلتها الحكومة أصدر مجلة الشّهاب، وأصدر أيضاً صحفاً أخرى: الشريعة، والسنة المحمدية، والصراط، وكان في كتاباته وخطبه يعتبر الدّفاع عن الوطن قبل كل شيء، والتحرّر من الاستعمار، وإصلاح القضاء الإسلامي، وعدم خضوعه للقضاء الفرنسي. وفي سنة 1931م أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتُخِبَ رئيساً لها، واشتغل بتدريس تفسير القرآن الكريم والعلوم بالجامع الأخضر. ولما أتمّ التفسير أقيمت بمناسبة ختمه احتفالات كبيرة سنة 1938م حضرها ألوف من مختلف المدن الجزائرية، وتخرّجت عليه طبقة من العلماء والأدباء فكانوا روّاد النّهضة الجزائرية الحديثة في العلم، والأدب، والوطنية. توفي سنة 1940م في الجزائر[3].

2. عصره:

[3] انظر: مجاهد، زكي محمد، **الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994م)، ج3، ص 1039.

شهد عصر ابن باديس تحكّم ثقافة المستعمر الفرنسي في الجزائر، وتأثر بعض النّخبة من أبناء الجزائر بها، وكذا سيطرة الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي سيطرة واسعة مما أدّى إلى انتشار البدع والخرافات والاعتقادات الواهية. هذه الحالة السيّئة أقلقت ضمير العلماء المصلحين في الجزائر وهذا ما عبّر عنه الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة (ت 1917م) في قوله:

"فمن لكتاب الله يكشف سرّه *** ويشرحه وفق الفنون الحواضر"[4].

فقد كان هؤلاء المصلحون يدركون أنّ أفضل طريق لإخراج الأمّة الجزائرية من ظلمات الجهل والوهم والخرافة إلى نور الهداية والتوحيد هو تفسير كتاب الله عز وجل وفق مقتضيات العصر الحديث حتى يسهم في معالجة القضايا الفكرية والشرعية التي ابتليت بها الأمة الإسلامية على العموم، والشعب الجزائري على الخصوص. وقد حقّق الله رغبتهم هذه عندما شرع ابن باديس في تفسير القرآن الكريم تفسيراً شفوياً للناس في مسجد قسنطينة ابتداء من سنة (1913م)، وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة. وفي سنة (1925م) أصدر ابن باديس مجلة الشهاب الأسبوعية التي تحوّلت ابتداء من سنة (1929م) إلى مجلّة شهرية. هنا بدأ ابن باديس يحرّر بقلمه تفسير بعض الآيات من القرآن الكريم، ومن ثمّ ينشرها في هذه المجلة أملاً منه أن يسهم في نهضة الشعب الجزائري فكراً وعقيدةً وسلوكاً. وقد سلك ابن باديس في تفسيره لكتاب الله تعالى طريقتين: الأولى شفهيّة، والثانية: تحريريّة.

وقد أتمّ تفسيره الشفويّ عام (1938م). يقول الشيخ الإبراهيمي: "أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية. وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة

---

[4] محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، (مصر: مطبعة المنار, ط1، د.ت)، ج3، 350.

متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر"[5]. وعلى إثر هذا الختم أقام رجال جمعية العلماء حفلاً تكريميّاً بهيجاً، وذلك تقديراً لجهود ابن باديس في تفسير القرآن الكريم لمدة نيّف وعشرين سنة، وبهذه المناسبة الكريمة يقول البشير الإبراهيمي: "هذا اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيراً سلفياً ليرجع المسلمون إلى فهمه فهماً سلفياً، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره"[6].

أما تفسيره المدوّن فلم يُتمَّه، وهو عبارة عن مجموعة دروس في تفسير آيات متفرقة ومقصودة من سور المائدة، ويوسف، والنّحل، والإسراء، ومريم، وطه، والأنبياء، والحجّ، والمؤمنون، والنّور، والفرقان، والنّمل، والأحزاب، ويس، والذّاريات، والمعوّذتين، إضافة إلى تفسيرٍ موضوعيٍّ عن: "العرب في القرآن"، نشرها ابن باديس كافتتاحيات لمجلة الشهاب الشهرية وكان يسميها **"مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"**، وأعاد نشرها وعلّق عليها الأستاذان محمد الصالح رمضان الجزائري وتوفيق محمد شاهين المصري في مجلد واحد فقط، عدد صفحاته أربعمائة من الحجم المتوسّط[7].

قال البشير الإبراهيمي وهو يتحسّر على عدم تدوين تفسير ابن باديس: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها. وضاع على الأمة كنز علم لا يقوّم بمال، ولا يعوّض بحال. ومات فمات علم التفسير وماتت "طريقة ابن باديس" في التفسير. ولكن الله تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه. فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة "الشهاب"

---

[5] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، (مصر: مطبعة المنار, ط1، د.ت)، ج1، ص318.

[6] المصدر السابق، ج1، ص362.

[7] ابن باديس، عبد الحميد، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تحقيق: أحمد شمس الدّين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995م).

ويسميها "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير "، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الكتابي"[8].

وأعتقد أنّ عدم كتابة ابن باديس لتفسير كامل يعود إلى ما يراه ابن باديس نفسه في أن المفسرين الأقدمين قد سدّوا هذا الدَّين عن الأمّة، لهذا فلا حاجة عنده إلى إعادة كتابة تفسير كامل لكونه حسب رأيه مشغلة عن العمل المقدّم.

وجوه الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

لقد شعر المسلمون عموماً بالبلايا والرّزايا التي لحقتهم في مظاهر تديّنهم، وأحوال دنياهم، وأدرك العلماء والمصلحون منهم أنّ السبب في ذلك يعود إلى غفلة المسلمين عن دينهم من ناحية، وافتتانهم بمدنية الغرب القائمة على حُبِّ المادة حُبّاً جَمّاً، وإهمال الرّوح من ناحية أخرى[9]. وتالياً فإنّ هذه الغفلة عن الدين الإسلامي الحنيف، وهذا

---

[8] المرجع السابق، ص 21.

[9] يرى جمال الدّين الأفغاني أن من أسباب انحلال المسلمين في العصر الحديث: تفريقهم بين العلم والعمل، والدّين والعلم الحديث كما انتشر في أوربا نفسها، واقتصارهم على فهم معنى العلم بأنّه حفظ متون الفقه والإلمام بمسائل علم الكلام وشتات من علوم اللّغة العربية وآدابها لا غير، رغم أنّ الدّين الإسلامي شجّع على طلب العلم بكامل صوره ومفاهيمه وحضّ الرّسول صلى الله عليه وسلم على طلبه في كل مكان وأخذه عن أصحابه بقطع النّظر عن لغتهم ودينهم وجنسهم

الاندفاع الرّهيب نحو تقليد الغرب في كل صغيرة وكبيرة، حتى معايبَه ومفاسدَه، أفسد فطرة الناس، وزيّن لهم الباطل في إدراكهم وتصوّراتهم فأصبحوا كما يخبر القرآن الكريم: [**وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ]** الأعراف: [147].

إزاء هذا التدنّي الذي شهدته الأمّة الإسلامية قاطبة على المستويين الديني والدنيوي، أخذت صيحات علماء الإصلاح ترتفع في شتّى البلاد الإسلامية، داعية الناس إلى معالجة واقعهم المرّ بالرجوع إلى كتاب الله عز وجل، وإلى سنة رسول الله ρ. هنا بالذّات –أي: بعد اتفاق علماء الإصلاح على أن الحلّ الرئيس هو الرجوع إلى الإسلام الصحيح علماً وعقيدةً، وعملاً ومنهجاً– بدأ كل واحد من علماء الإصلاح يميل إلى الخطاب الذي يراه مناسباً في الإصلاح والتغيير والتجديد، فمنهم من اعتبر أن الخطاب العقدي هو أساس كل إصلاح، لأن أوّل ما بدأ به النبيّ ρ في دعوته هو إصلاح الجوهر؛ ومنهم من كان يرى أن الخطاب التهذيبي هو الأساس، لأنّ النبيّ ρ بُعِث ليتمّم مكارم الأخلاق؛ وآخرون يرون أن الخطاب الجهادي هو الأساس لأجل إزالة حكم القوى الظالمة، والفاسدة، أو بمنطق أنّ ما أخذ بالقوّة لا يسترجع إلا بالقوة؛ ورأى آخرون أن الخطاب الإعلامي بمختلف وسائله وأساليبه هو الأساس، لأنّه يسهم في تصحيح المفاهيم، ومحاربة الأراجيف، ودفع الشبهات والمغالطات؛ وآخرون رأوا أن الخطاب الاقتصادي هو الأساس، بحكم أنّ المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب بتعبير ابن خلدون؛ وهناك من كان يرى أن الخطاب السياسي هو الأساس لأجل مطالبة الحاكم أو المستعمر الأجنبي باسترجاع جميع الحقوق إلى أصحابها، والمحافظة التامّة على مقوّمات الشخصية الإسلامية وكيان المجتمع الإسلامي. وإلى غير ذلك من جوانب الخطاب الإسلامي التي دعا إليها دعاة الإصلاح والتغيير وقتذاك.

ومكانهم الجغرافي، لأنّ العلم البشري لا جنس له ولا ملّة بل هو إرث عقلاني مشترك ينتفع به كل الناس. انظر: المراكشي، محمد صالح، **تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار**، (تونس، التونسية للنشر، 1985م)، ص 85.

لم تكن نظرة العلماء إلى الإصلاح نظرة شمولية، وإنّما كانت نظرة جزئية، حاولوا من خلالها الاهتمام بجانب واحد من جوانب الخطاب الإسلامي قصد التغيير والإصلاح، والصحيح هو أن الإصلاح يجب ألا يُنظر إليه من جهة واحدة، بل ينبغي أن يُنظر إليه من جهات وجوانب متعدّدة حتى يكتمل العلاج[10]. "إنَّ النَّظرية الجزئية تكون دائماً عقبة في سبيل الإصلاح، وما يصدق على الأسباب يصدق على أنواع العلاج التي يمكن أن نعالج بها أمراض الإنسان الحديث، فإذا قرّرنا أنّ سبب المرض عامل اقتصادي، أو روحي، أو نفسي، فإنّ العلاج ينحصر في تلك النّاحية المعيّنة، وأمَّا إذا نظرنا نظرة متكاملة، وقرّرنا أنّ للظواهر المرضية نواحي متعددة، وأسباباً متنوّعة، فإنّ الإصلاح يتناول ميادين التوجيه الأخلاقي، والاقتصادي، والثقافي، والسياسي، والصناعي، أمَّا الانصراف إلى إصلاح حالة واحدة فإنّه لا يؤدّي إلى نتيجة، بل يؤدّي إلى الهدم والتخريب"[11]. إلا أنّنا نلاحظ في الوقت نفسه أنّه كانت هناك ثلّة من العلماء المصلحين مثل: جمال الدين القاسمي، ورشيد رضا، ومحمد إقبال (ت 1938م)، وحسن البنّا، وأبو الأعلى المودودي، وغيرهم، نَظروا إلى الإصلاح والتغيير من جوانب عدّة وليس

[10] تتمثّلُ نظرية جمال الدّين الأفغاني في الإصلاح والتجديد في تغليب السياسة على التربية والتعليم لأنّ الإسلام عنده مبنيّ على طلب القوّة والشّوكة، لذلك نلفيه يؤيّد ثورة أحمد عرابي باشا في مصر؛ بينما تلميذه في الدّعوة محمّد عبده كان ساخطاً على حركة عرابي وجماعته، لأنّه يرى أنّ الإصلاح والتجديد يكون من طريق التربية والتعليم لذلك نجده يرمي باللّوم على شيخه لسلوكه هذا اللّون من الاتجاه في الإصلاح والتجديد ويتمنّى لو أنّ شيخه سلك طريق التربية والتعليم حتى يكون النّفع أكثر وأعمّ. وقد أوضح الشيخ رشيد رضا هذا التباين بين مذهبي المصلِحَيْن فقال: "فاشتغل كل منهما بما خلق ميسّراً له، فكان رأيه تبعاً لميله واستعداده، وكل منهما ضروري لابدّ منه، الإصلاح والتجديد من طريق السياسة، والإصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية، وإن شئت قلت تجديد الأمّة بإصلاح الدولة، وتجديد الدولة بإصلاح الأمّة، لابد من كل منهما، وكل منهما يفضي إلى الآخر، ولكن الأوّل= =أدنى وأسرع، والثاني أثبت وأدوم" انظر: رضا، محمد رشيد، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ج1، ص 974. هذا ويرى محمد عمارة أن نظرة محمد عبده إلى الإصلاح والتجديد كانت نظرة مثالية غير واقعية لاعتقاده أنّ التربيّة هي العصا السحرية التي تغيّر كل شيء، وتالياً فإنّه قد أغفل الجوانب الأخرى في حياة المجتمع والمشاكل العديدة التي لا بدّ من أن يسير المصلحون أو الثوّار في حلّها جنباً إلى جنب مع الإصلاح التربوي والنهضة بالتعليم على حدّ قوله. انظر: عمارة، محمد، **الإمام محمد عبده**، (بيروت، دار الوحدة، د.ط، 1985م)، ص 213.

[11] عمار الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1968م)، ج1، ص 100.

من جانب واحد فقط. وهذا ما فعله ابن باديس في مشروعه الإصلاحي من خلال تفسيره للقرآن الكريم، حيث كان خطابه خطاباً عامّاً تبعاً لشمولية القرآن الكريم الذي يخاطب الناس جميعاً: أفراداً، وجماعاتٍ، ذكراناً وإناثاً، شبّاناً وشيوخاً، نُسَّاكاً وعلماءَ، مسلمين وغير مسلمين.

هكذا فقد استلهم ابن باديس شمول خطابه الإصلاحي من شمولية القرآن، ومن ثم وظّف هذه الشمولية في تفسيره للقرآن الحكيم الذي أنار به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً.

ما يهمُّنا في هذا المبحث هو استخراج وتحليل أهمّ وجوه الخطاب الإصلاحي التي وردت في تفسير ابن باديس، وهي موزّعة على المطالب الآتية:

الوجه الأول: الخطاب العقدي

إنّ عمل القلب مُقدَّمٌ على عمل الجارحة وإن كان الشّرع قد حثّنا على طلب الكمال في كليهما كما هو مشهور عند علماء العقيدة والسّلوك، وهذا ما يؤكّده قوله تعالى: **[يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ]** الشعراء: [88-89]. وما رواه البخاري[12]، ومسلم[13] عن النّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال:

---

[12] البخاري، إسماعيل، **الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ρ وسننه وأيّامه**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 2002م)، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: 52، مج1، ص 21.

[13] مسلم، ابن الحجاج، **الجامع الصحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ρ**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998)، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: 1599، مج3، ص 57.

سمعت رسول الله ρ يقول: "إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن.." إلى قوله ρ: " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"، وكان النبي ρ يقول في دعائه: "أسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً"[14]، وعن أنس عن النبي ρ قال: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه"[15]. يرى ابن رجب الحنبلي أنَّ المراد "باستقامة إيمانه: استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئاً من محبة الله، ومحبّة طاعته، وكراهة معصيته"[16].

قال ابن باديس عند تفسيره لقوله تعالى: **[وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا]** الإسراء: [58]. "ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات"[17]. ويقول أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى ذِكرُهُ: **[وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**

---

[14] الحديث بطوله أخرجه الترمذي في سننه عن رجل من بني حنظلة قال: صحبت شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فقال: ألا أعلمك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا أن نقول؟ **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لسانا صادقاً وقلباً سليماً، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم؛ إنك أنت علام الغيوب**. راجع: أبو عيسى الترمذي، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ρ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، مج4، كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، ح 3407، مج4، ص 314.

[15] الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا والخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره جارُه بوائقه"**. راجع: الغزاليّ، أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، ت: الحافظ العراقي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 2002م)، كتاب آفات اللسان، مج3، ص 99.

[16] الحنبلي، ابن رجب، **جامع العلوم والحكم**، (السعودية، دار الملك عبد العزيز، ط9، 2002م)، مج1، ص 210- 211.

[17] ابن باديس، عبد الحميد، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 126.

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً] الإسراء: [83-84]. "إنّ الذي نوجّه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه"[18].

لقد أدرك ابن باديس أن أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، لذلك نلفيه مهتمّاً بإصلاح العقائد وتنقيتها مما علق بها من أدران الشرك ومظاهره، ومثل هذا الانحراف العقدي كان منتشراً بين عموم الناس في الجزائر وقتذاك، حيث كانوا متأثرين ببعض أفكار الطرقية مما نتج عن ذلك توجه كثير منهم إلى الأضرحة التي شيّدت عليها القباب، أو بنيت عليها المساجد مظهرين فيها أنواعاً من الشركيات، مثل: تقديم القرابين، والاستغاثة بمن يعتقدون فيهم الصلاح من الأموات، والطّواف بالقبور والتمسّح بها، وقد اعترف ابن باديس بهذا الانحراف الخطير عندما قال: "حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها —علم الله- من بلاء على الأمّة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحمّلنا في ذلك من صعاب"[19]. وأنَّ: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السّلف، ومبناها كلّها على الغلوّ في الشيخ، والتحيّز لاتّباع الشيخ، وخدمة دار الشّيخ، وأولاد الشّيخ إلى ما هناك من استغلال، ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم، وقتل للشعور، وغير ذلك من الشّرور"[20].

إنّ هذا التديّن المغشوش الذي كان سائداً بين فئة من الناس آنذاك، دفع بابن باديس إلى تعليم هذه الفئة معنى توحيد الله تعالى بالعبادة. فعند قوله تعالى: **[وَقَضَى**

---

[18] المرجع السابق، ص 150.
[19] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 369.
[20] المرجع السابق، ج3، ص 133.

رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ] الإسراء: [23]. يقول ابن باديس: "فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا له، فذلّ القلب وخضوعه، والشعور بالضّعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرّع والسؤال، هذه كلّها لا تكون إلا لله. فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضرّه أو نفعه فقد عبده، ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلى أنّه من عنده أو من عند الله فقد عبده، ومن توجّه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السّوء أو يدفع عنه الضرّ فقد عبده، ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنّه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده، فالله تعالى يعلّم الخلق كلّهم في هذه الآية بأنّه أمر أمراً عامّاً وحكم حكماً جازماً، بأنّ العبادة لا تكون إلا له"[21].

وقد حكم ابن باديس على الداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه، قد عبد من دعاه، وإن لم يعتبر دعاءه عبادة، جهلاً منه، أو عناداً، لأنّ العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره على حدّ قوله[22]. وفي الوقت نفسه فإن ابن باديس قد شنّ حملة انتقادية هادئة ضدّ مروّجي هذه الأفكار الباطلة، وكان مما نتج عن هذه التوعية تراجع كثيرٍ منهم عن هذه الأفكار المنحرفة، وعودتهم إلى سبيل الرّشد للإسهام في خدمة الدعوة الإسلامية في الجزائر. كما نصح ابن باديس أهل العلم بانتهاج طريقٍ سهلٍ في تعليم العامّة لعقائدها الدينية، والابتعاد عن أدلّة المتكلمين الغامضة ذات العبارات الاصطلاحية، قال ابن باديس: "ولن يجد العامّيّ الأدلّة لعقائد سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه، أما الإعراض عن أدلة القرآن والذّهاب مع أدلّة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنّه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشدّ

---

[21] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 63.

[22] انظر: المصدر السابق، ص 119.

الحاجة إليه. لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه"[23].

الوجه الثاني: الخطاب الفقهي

يقصد بالخطاب الفقهي معرفة أحكام الشَّرعِ وتعاليمِه معرفة صحيحة حتى يَتسنَّى للنّاس تطبيق الإسلام تطبيقاً صحيحاً لا ترى فيه عوجاً ولا انحرافاً عن الجادّة.

لا شكّ أنّ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدّين، والفقه في الدّين هو العلم الصحيح المقرون بالعمل المتقن بناءً على ذلك العلم الصحيح. إنّ عموم الأمّة الإسلامية بحاجة ماسة إلى من يعلّمهم هذا العلم الصحيح، ومن ثمَّ كيفيّة تطبيقه في واقع حياتهم تطبيقاً مُتقَناً بحيث لا يخالف مقتضى ذلك العلم الصحيح، وهذا كلُّه مع مراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال.

إنّ من المعلوم من الدّين بالضّرورة أنّ الله تعالى خلقنا لعبادته، قال I: **[وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ]** الذّاريات: [56]. ولعبادته سبحانه حقّ العبادة فإنّه أرسل لنا صفوة خلقه، وهم الأنبياء والرّسل، وأنزل علينا كتبه، وجعل العلماء العاملين من بعد ذلك هم ورثة رسله، وحملة شرعه للناس كافّة، لأجل ذلك فإنّ الله أخذ العهد والميثاق على العلماء لتبيين شريعته كما تلقّوها بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك أو ضالّ، وتوعّدهم بالنّكال الشّديد، والخزي العظيم إذا هم تقاعسوا عن أداء هذه المهَمَّة العظيمة التي أبت السموات والأرض أن يحملنها إجلالاً وتعظيماً لله تبارك وتعالى. وبهذا المفهوم فإنّ الله عز وجلّ لا يقبل طاعة عبدٍ من عباده إلاَّ بشرطين اثنين لا ثالث لهما، وهما: الإخلاص، والصواب. وقد مضى الإشارة إلى الأوّل وعبّرنا عنه بالخطاب العقدي، وذكرنا هنالك أمراً عليه مدار الإسلام، وهو أنّ الله لا يقبل عبادة

[23] المصدر نفسه، ص 105.

عبد إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم. أما الثاني وهو الصواب، والمقصود منه هو متابعة رسول الله ρ في كل ما أمر به ونهى عنه، قال Ψ: **[وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ]** الحشر: [7]. وعبّرنا عنه هنا بالخطاب الفقهي.

إنّ الأمّة الجزائرية في أيّام الاستعمار الفرنسي كانت تتخبّط في ظلمات الجهل والأميّة والبعد عن الإسلام الذّاتي (الصّحيح)، وبالمناسبة فقد قسّم ابن باديس الإسلام إلى قسمين، وهما: الإسلام الوراثي، والإسلام الذاتي. الإسلام الوراثي في نظره هو الإسلام التقليدي الذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنّما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبة أهله للإسلام إنّما هي محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان، هذا الإسلام الوراثي حفظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به شخصيّتها ولغتها وشيئاً كثيراً من الأخلاق، لكن هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم لأنّه مبنيٌّ على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر؛ أما الإسلام الذّاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله، ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به، وللتوصل إليه هناك سبيل واحد، وهو التعليم على حدّ تعبيره[24].

وهذه الآفات وغيرها هي التي دفعت ابن باديس إلى تعليم الناس مبادئ هذا الدّين الحنيف عن طريق دروس تفسير القرآن الكريم، ودروس الفقه المالكي، والمحاضرات التي كان يلقيها في أنحاء الوطن الجزائري، وما كان يحرّره بقلمه في الجرائد والمجلات.

لقد أتاحت هذه المحطّات التعليمية لابن باديس فرصة الإجابة عن تساؤلات الناس، ومعالجة بعض المسائل المختلف فيها، مثل: مسألة ولاية المرأة الملك، حيث أخذ

---

[24] لمزيد من التفاصيل، انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 240-242.

ابن باديس بقول الجمهور في عدم تولية المرأة الولاية، والإمارة، والقضاء[25]. ومسألة مصير والديّ النّبيّ ρ يوم يدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار. حيث يرى ابن باديس بأنّهما من الناجين من عذاب الله لاعتبارهما من أهل الفترة، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: **[وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً]** الإسراء: [15]. وغيرها من الآيات التي جاءت بنفس المعنى، ولكن استثنَى ابن باديس مِن أهل الفترة مَن جاء فيهم نص ثابت خاص كعمرو بن لحيّ الذي بدّل في شريعة إبراهيم عليه السلام[26]. ومسألة حكم ستر وجه المرأة في قوله I: **[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا]**الأحزاب: [59]. قال ابن باديس بعد إيراده للأدلة الشرعية على جواز إظهار الوجه والكفّين للمرأة: "فهذه النّقول كلّها مفيدة لنا دلّت عليه الآية من أن الوجه والكفّين ليسا بعورة وأنّه لا يجب على المرأة سترهما. نعم نصَّ أكثر الفقهاء المتأخرين مع جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت الفتنة، وهذا حكم عارض معلّل بهذه العلّة، فيدور معها وجوداً وعدماً"[27].

أمّا مسألة كفر تارك الصلاة أو عدم كفره على عِظم جُرمِه، يقول ابن باديس: "الكفر قسمان: اعتقادي وهو الذي يضادّ الإيمان، وكفر عملي وهو لا يضادّ الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحلّ للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك. وبهذا يُجمَع بين الأحاديث[28]، وكفى زاجراً للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف"[29]، ومما

---

[25] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 273-274.

[26] لمزيد من التفاصيل، انظر: المصدر السابق، ص 297.

[27] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج2، ص 131-132.

[28] أي الأحاديث الصريحة في كفر تارك صلاة مثل حديث جابر، وحديث بريدة رضي الله عنهما، والأحاديث الدالة على عدم كفره إذا لم يكن مستحلاً لها مثل حديث ابن الصامت الصريح في جعل تارك الصلاة في مشيئة الله.

يُذكَر عن الاجتهادات التي يرى ابن باديس أنّه تفرّد بها، قوله تعالى: **[أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا]** الإسراء: [78]. حيث ذكر بأنّ هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ووجّه ذلك بوجهين من رأي السّلف، ثم ذكر وجهاً ثالثاً له، فقال: "الثالث: ولم أره لأحد، واللفظ يحتمله: أن ميل الشمس يبتدئ بالزوال، وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق، غير أن ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق في المغيب، إلى أن يغيب بتمامه؛ ولا شك أن ذلك نتيجة ميلها من وراء الأفق؛ فالصلوات الأربع على هذا واجبة لدلوك الشمس. وأمّا غسق الليل: فهو اشتداد ظلمته، وذلك يكون على أتمّه بعد مضيّ الثلث الأوّل من الليل؛ فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجاً عن حكم ما قبل؛ لأنّ وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الأوّل، فالأوقات تنتهي عند غسق الليل"[30].

لكيلا يُترَك البابُ مفتوحاً أمام كل من هبّ ودبّ للإدلاء برأيه في الأمور العامّة للناس، فيقودونهم بغير علم، فيَضِلّون ويُضِلّون، ويَهلكون ويُهلِكون، ويُفسدون ولا يصلحون، فإنّ ابن باديس يرى أنّ العلم وحده هو الإمام المتّبع في الحياة. ففي قوله تعالى: **[وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ]** الإسراء: [36]. يقول ابن باديس: "أي لا تتّبع ما لا علم لك به فلا يكن منك اتّباع بالقول، أو بالفعل، أو بالقلب، لما لا تعلم؛ فنهانا عن أن نعتقد إلاَّ عن علم أو نفعل إلاَّ عن علم، أو نقول إلاَّ عن علم. فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا، بل علينا أن ننظر فيه، ونفكّر، فإذا عرفناه عن بيّنة اعتقدناه، وإلا تركناه حيث هو، في دائرة الشكوك والأوهام، أو الظّنون التي لا تعتبر"[31].

الوجه الثالث: الخطاب التهذيبي

---

29 ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآية: 78 من سورة الإسراء، ص 136.

30 المصدر السابق، ص 133.

31 المصدر السابق، ص 297.

التهذيب هو تطهير النفس من الرّذائل وتحليّتها بالفضائل بناءً على العلم الصحيح الذي هو الأساس المعوّل عليه في كل إصلاح. وما تأخّر المسلمون في حياتهم إلا بسبب غفلتهم عن هذا الجانب المهمّ الذي يتوقّف عليه صلاحهم وسعادتهم ورقيّهم بين الأمم. وعن أهميّة هذا التهذيب، يقول ابن باديس: "كما تحتاج الأبدان إلى غذاء من المطعوم والمشروب، كذلك تحتاج العقول إلى غذاء من الأدب الراقي والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمّة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة بينهم إلا إذا تغذّت عقول أبنائها بهذا الغذاء النّفيس، فنحن ننشر المقالات العلمية والأدبية، وكل ما يغذّي العقول من منظوم ومنثور من صحف الشرق والغرب وأقلام كُتّاب الوطن، ونقاوم كل مُعوَجٍّ من الأخلاق وفاسد من العادات، ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدّين الذي هو قوام الإخلاص فأفسدته، وعاد وبال ذلك الفساد علينا وتأخّرنا من حيث يكون تقدّمنا وسقطنا بما لا نرتفع إلا به، لما شوّهناه بإدخال ما هو ضدّه عليه"[32]. ولتطبيق هذا المبدأ النبيل، كان ابن باديس يختار آيات من القرآن الكريم تؤدّي ذلك الغرض، فيفسّرها على شكل وصايا وتعاليم واجبة التنفيذ بحكم أنّها مستمدّة من القرآن الكريم الذي لا يقبل الاعتراض على تطبيق أحكامه وتعاليمه لأنّه تنزيل من ربّ العالمين، ولنقف الآن عند بعض آراء ابن باديس في النّفس والفضائل الأخلاقية من خلال تفسيره:

– منها: أنّ من أسرار كلمة "الله أكبر" التي يأتي بها المؤمن مرآت كثيرة في صلواته وغيرها من أحواله، حفظ القلب من الخنوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التي

---

[32] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 279- 280.

يصغُر عندها كل مخلوق، فلا يزال المؤمن لهذا قويّ القلب، عزيز النفس بالله، لا ينتظر قوّة بدلاً من ضعفه إلاَّ به، ولا سدّ مفاقره إلا منه[33].

– ومنها: أنّ الإنفاق في المنهيّات تبذيرٌ وإن كان قليلاً؛ والإنفاق في المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيراً إلاَّ إذا أنفق في مطلوب دون تقدير فأضرّ بمطلوب آخر؛ والإنفاق في المباحات إذا لم يضيّع مطلوباً ليس بتبذير، فإذا توسّع في المباحات وقعد عن المطلوبات فهو تبذير مذموم[34].

– ومنها: أنّ في ربط الصلاة بالأوقات، تعليم لنا، لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته: فللنّوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته[35].

– ومنها: أن نحذر من أن نعترض أو نحكم بالأنظار السطحية. دون بحث عن الحقائق، أو نلحق شيئاً بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق؛ فقد انتشرت بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات، وبالنّظر السطحيّ ازدرى إبليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه، فكانت عليه اللعنة إلى يوم الدّين، وبعدم النّظر إلى الفوارق، قال أحد ابني آدم لأخيه لما تقبّل قربانه دونه هو: [**لأَقْتُلَنَّكَ**]المائدة: [27]. حتى ذكّره أخوه بوجود الفارق فقال: [**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**]المائدة: [27]. وحقيقة الأوّل ترجع إلى الجهل المركّب، وحقيقة الثاني ترجع إلى القياس الفاسد، وهما أعظم أصول الفساد والضلال[36].

– ومنها أيضاً: أنّ حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها، مبنية على الأركان الثلاثة: الإرادة، والفكر، والعمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بدّ للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على

---

[33] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، تفسير الآيات: 22- 39 من سورة الإسراء، ص 64.

[34] انظر: المصدر السابق، تفسير الآية 26 من سورة الإسراء، ص 81- 82.

[35] انظر: المصدر نفسه، تفسير الآية 78 من سورة الإسراء، ص 136.

[36] انظر: المصدر نفسه، تفسير الآية 20 من سورة الفرقان، ص 165.

الخُلُق، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القويّة من الخلُق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم، فلهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله، وخلقه، وبدنه، ودفع المضارّ عنها، فيثقّف عقله بالعلم، ويقوّم أخلاقه بالسّلوك النبويّ، ويقوّي بدنه بتنظيم الغِذاء، وتوقّي الأذى، والتريّض على العمل[37].

– ومنها: أنّ على العاقل –وقد علم أنّه محاسب على أفعاله وعلى آثار أقواله– ألاَّ يفعل فعلاً ولا يقول قولاً حتى ينظر عواقبه، فقد تكون تلك العواقب أضرّ عليه من أصل القول وأصل الفعل، فقد يقول القول مرّة، ويفعل الفعل مرّة، ثمّ يقتدي به فيه آلاف عديدة في أزمنة متطاولة[38]. وغيرها من الوصايا والنّصائح التي وردت في تفسير ابن باديس.

الوجه **الرابع: الخطاب التذكيري**

تمرُّ بالإنسان في هذه الدار ساعات يضعف فيها إيمانه إلى درجة صيرورة قلبه كأنّه جَلمود صَخرٍ، فتدفعه هذه القساوة القلبية إلى التمنّي لو أنّه لم يولد، أو ليته لم يكن إنساناً حتى لا يشعر بأعباء هذه الحياة الزائفة. هكذا كان شعور فئة من الناس أيّام الاستعمار الفرنسي في الجزائر، كيف لا وقد كان الشعب الجزائري آنئذ يعيش في مناخ يسوده الفقر والحرمان والمسغبة والجهل والأمّيّة ونحو ذلك من البلايا. هذا الواقع المرّ جعل ابن باديس يستعمل خطاب التذكير في دروسه التفسيرية حتى يسهم في معالجة هذا المرض النّفسي، وما هذا الخطاب التذكيري إلا أسلوباً من أساليب القرآن الكريم التي صبغ بها الله عز وجل كتابه العظيم ليدلّل خلقه عليه، وعلى قدرته، وعظمته سبحانه.

[37] انظر: المصدر نفسه ، تفسير الآية 26 من سورة الفرقان، ص 191.
[38] انظر: المصدر نفسه، تفسير الآية 12 من سورة يس، ص 308.

يرى ابن باديس أنّ حقيقة التذكير هو أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان به جاهلاً، أو عنه ناسياً، أو غافلاً. وقد يقوم الفعل والسّمت والهدي مقام القول، فيسمّى تذكيراً مجازاً وتوسّعاً على حدّ تعبيره[39].

وعن حاجة الخلق إلى هذا التذكير، يقول ابن باديس: "وحاجة العباد إلى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون إليه وأشرف وألزم، فإنّ سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بإنارة عقولهم، وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم. وفي الحياة الأخرى بنعيم الجنان، وحلول الرِّضوان إنما هي بإيمانهم بربهم، وشكرهم له. وإنّ دلائل وجوده ووحدانيّته وقيّوميّته، وآثار فضله وإحسانه ورحمته ماثلة في الكون بادية للعيان، داعية إلى الشكر، هادية إلى الإيمان. لكن العقول كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها؛ فتعمى عن تلك الدلائل والآثار، فتكفر كفر جحود وعناد، أو كفر عصيان وطغيان؛ ويكون تورّطها في كبائر الذّنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود. وليس لغير من عصم الله انفكاك أو خروج منها كلها. فهم إذن بأشدّ الحاجة إلى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا أسباب سعادتهم بالإيمان والشّكر"[40]. وأعظم وسيلة لترطيب القلوب وتخليصها مما هي فيه من وحشة وقسوة وغفلة وغفوة هو: ذكر الله تعالى، وأفضل الذّكر كما يرى ابن باديس هو قراءة القرآن لأنّه أفضل أعمال اللّسان، وتدبّر معانيه لأنّه أفضل أعمال القلب[41].

يحدّثنا ابن باديس عن تجربته في تلاوة القرآن وسماعه فيقول: "فوالله الذي لا إله إلاَّ هو، ما رأيت –وأنا ذو النّفس الملأى بالذّنوب والعيوب– أعظمَ إلانةً للقلب، واستدراراً للدمع، وإحضاراً للخشية، وأبعثَ على التوبةِ من تلاوةِ القرآن وسماعِ القرآن"[42].

---

[39] المصدر نفسه، ص 25.

[40] المصدر نفسه، ص 25.

[41] انظر: المصدر نفسه، ص 35.

[42] المصدر نفسه، ص 39.

ومن بدائع ابن باديس في هذا الباب أنّ الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين:

"(أ) معرضين، (ب) ومقبلين. فالمعرضون غير مؤمنين، والمقبلون على قسمين:

(أ) مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، (ب) ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم منافقون، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين:

(أ) مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين، (ب) وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلّها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبّر من المؤمنين"[43].

الوجه الخامس: الخطاب التاريخي

الأمّة التي لا تعتزُّ بتاريخها، وجلائل أعمال ماضيها هي أمّةٌ منبوذة، ومحكوم عليها بالضُّعف والفشل في معظم نواحي الحياة إن لم نقل جميعها، لأنّ البناء الحضاري لا يتحقق إلاّ عن طريق استذكار تراث ماضينا المجيد، مع إمعان النّظر في هذه المخلّفات وتعاهدها بالتصحيح والاستدراك، ومن ثَمَّ تنزيلها ودمجها بالحاضر، وتالياً فإنّ هذا التلاقح بين الماضي والحاضر يحدث نقلةً للأمم من السيّء إلى الحسن، وهكذا دواليك.

يرى ابن باديس أنّه بقدر ما تكثر معلومات الإنسان، ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها، ويستقيم تنظيمه لها، تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول، وقسمي العلوم والآداب، فإذا قلّت معلوماته قلّت اكتشافاته، وإذا كثرت معلوماته وأهمل

---

[43] المصدر نفسه، الآية 73 من سورة الفرقان، ص 235.

النّظر فيها بقي حيث هو جامداً، ثمّ لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقلّ وتضمحلّ؛ لأنّ المعلومات إذا لم تتعاهد بالنّظر زالت من المحافظة شيئاً فشيئاً[44]. إنّ سرَّ انحطاط المسلمين وانتقال حضارتهم إلى الغرب يرجع إلى إهمالهم النّظر في معلوماتهم حتى قلّت وانقشعت؛ أما الغرب فقد استدرك ما أهمله المسلمون حتى تكاثرت معلوماته وزادت اكتشافاته.

ولنقف الآن عند أنموذج حيٍّ لهذا الخطاب التاريخي، والمتمثل في محاضرة قيّمة بعنوان: (العرب في القرآن)، ارتجلها الإمام عبد الحميد بن باديس في نادي الترقّي بالجزائر العاصمة سنة (1939م)، وهذه المحاضرة هي عبارة عن تفسير موضوعي، لأنّ الشيخ قام بجمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم التي تبحث في موضوع واحد.

يرى ابن باديس أنّ من واجب المسلمين العناية بتاريخهم ومدنيّتهم، قال عن ذلك: "حقّ على كل من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيّتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام، وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض"[45]. ثمّ يتحدّث ابن باديس عن بعض المعلومات المغلوطة عن العرب، فيقول: "العرب مظلومون في التاريخ، فإنّ النّاس يعتقدون ويعرفون أنّ العرب كانوا همجاً لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به، فأخرجهم من الظلمات إلى النّور"[46]. ثم يقوم بدفع هذه الشبهة قائلاً: "إنّ القرآن وحده هو الذي أنصف العرب، والناس بعد نزول القرآن قصّروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيّل الجائر عن القصد. والتاريخ يجب ألا ينظر من جهة واحدة، بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب، وجهات تذمّ وتقبح، وجهات

---

[44] انظر: المصدر نفسه، الآية 36 من سورة الإسراء، ص 101- 102.

[45] المصدر نفسه، العرب في القرآن، ص 389.

[46] المصدر نفسه، العرب في القرآن، ص 393.

يثني عليها وتمدح"[47]. ثم يذكر ابن باديس أمثلة عن العرب في القرآن الكريم، فيشير إلى أمّة عاد ويذكر بأنها أمة عربيّة ذات تاريخ قديم، ومدنية باذخة، ذكرها القرآن بالقوّة والصولة وعزّة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوّة؛ ثم يشير إلى أمّة أخرى وهي ثمود، ويذكر بأنها أمة عربية، ذكرها القرآن بالقوّة والتعمير والحضارة، وأنكر عليهم استعانتهم بنعم الله التي يسّرها لهم على الكفر به، وإنذارهم أنّ الكفر بها سيكون سبباً في زوالها؛ ثم أشار إلى حضارة اليمن، وهي أيضاً أمّة عربية، ذكرها القرآن بالتعمير والتنظيم والمدنية الزاهرة، ولكن لما كفروا بأنعم الله واستعملوها في ما يسخطه، سلّط الله عليهم من الأسباب ما خرّب عمرانهم، وأباد حضارتهم، وذلك في قوله Y: [**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**] [48] سبأ: [16].

الوجه السادس: الخطاب الاجتماعي

يرى ابن باديس أنّ التغيير الفردي هو سبيل تغيير المجتمع وصلاحه، وأنّ التحلّي بالفضائل الأخلاقية والتمسّك بها هي أساس كل إصلاح، لذلك كان رحمه الله يتخذ كل الوسائل الشرعيّة التي تؤدّي إلى هذا الغرض النّبيل، وهو تهذيب النفوس وتزكيّتها من كل معوجّ من الأخلاق وفاسد من العادات، وفي هذا الإطار يقول ابن باديس: "على المرء أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب النّاس إليه، ثم من بعدهم على التدريج، وعندما يقوم كل واحد منّا بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه، لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع: فمن الأُسَرِ تتركّب الأمم؛ فعندما يعني كل واحد بأسرته ترتقي الأمّة كلها بارتقاء أسرها، فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسه معتنياً بأمّته، وعندما يقصد بخدمة

---

47 المصدر نفسه، العرب في القرآن، ص 393.

48 لمزيد من التفاصيل، انظر: المصدر نفسه، العرب في القرآن، ص393-401.

أسرته خدمة أمّته يثاب ثواب خادم الجميع: أسرته بالفعل، وأمّته بالقصد، أو أسرته مباشرة وأمّته بواسطة، وكل هذا مما يثاب المرء شرعاً عليه"[49].

يفهم من هذا الكلام أنّ ابن باديس يرى أنّ الإصلاح الاجتماعي ينطلق من الأفراد أو من الدّاخل، فإذا صلح الأفراد صلحت المجتمعات، وإذا فسد فسدت، وأنّ أهمّ وسيلة لتحقيق الإصلاح الاجتماعي هو الابتداء بتخلية النفوس من الرّذائل، وتحليّتها بالفضائل، وعند قيام كل أفراد المجتمع بهذا الواجب الذّاتي فإنّ المجتمعات الإسلامية تسهم بالنهوض بنفسها وبغيرها ومن ثمّ ينتشر الخير في البشريّة جميعاً. ويذهب ابن باديس إلى أبعد من هذا عندما يقرّر أنّ الأولويّة في الإصلاح هو إصلاح الوطن الخاص ثم سائر الأوطان المجاورة لأنّه لا يمكن تأدية خدمة مثمرة للأوطان الأخرى إلا إذا خدم كل ذي وطن وطنه، ويضرب لنا ابن باديس مثلاً رائعاً في وصف هذه الفلسفة الإصلاحية فيقول: "وما مثلنا في وطننا الخاصّ (الجزائر) —وكل ذي وطن خاص– إلا كمثل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية، ومن ضيّع بيته فهو لما سواها أضيع، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقّى القرية وتسعد، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحطّ، فنحن إذا كنّا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها —معاذ الله– ولكن لننفعها وننفع ما اتّصل بها من أوطانٍ الأقرب فالأقرب"[50]. وتالياً يلاحظ أن ابن باديس كان مهتمّاً جدّاً بقضايا وطنه، فما من قضيّة إلا وأسهم فيها وأعمل فيها نظره وفكره للوصول إلى الحلول المناسبة، وهذا مثل قضية تعليم المرأة أو خروجها لطلب العلم التي كانت لا تزال محل نزاع في الساحة الجزائرية وقتذاك بين مؤيّدين ومانعين. قال

---

[49] المصدر نفسه، تفسير الآيات: 2-6 من سورة يس، ص 297.

[50] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 237.

ابن باديس: "إن العناية بالرّجل تستلزم العناية بالمرأة شقيقته في الخِلقة والتكليف وشريكته في البيت والحياة"[51].

حتى يكون الخطاب الاجتماعي خطاباً نافعاً وقادراً على التغيير والإصلاح والتجديد لابدّ أن يكون المخاطِب واعياً بالمرحلة التي يمرُّ بها المخاطَبون، ومن ثمّ توجيه المخاطِب خطابه بلُغةٍ تتوافق مع لغة السّامعين، لأنّ تحديث عموم الناس بحديث لا تبلغه عقولهم يحدث فيهم فتنة يصعب استئصالها بعد ذلك، قال ابن باديس: "أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقّدة، مسجعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترنّم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات، هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سدّ بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطّلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام، فحذار أيّها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيباً في النّاس"[52]. ومن باب التنبيه فإنّ الخطاب الاجتماعي ليس عبارة عن إصدار أحكام ضدّ الأشخاص أو الهيئات كما يعتقده البعض ويمارسه البعض الآخر، وإنّما هو عبارة عن كشف مناطق السّوء الموجودة داخل المجتمع، ومن ثَمَّ استئصالها من جذورها برفق ولين حتى لا يترتّب عليها مفاسد أخرى مستعصية.

الخاتمة

هكذا إذن كان ابن باديس ابن زمانه، يعيش مع واقعه، ويدور معه حيث دار، وما تعدُّد وجوه الخطاب الإصلاحي عنده إلا دليلاً على سعة أفقه ونضوجه الفكري.

---

[51] المرجع السابق، ج3، ص 467.

[52] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، تفسير الآية: 125 من سورة النّحل، ص 324.

لقد حاول ابن باديس في خطابه الإصلاحي الواضح والشامل تقديم الإسلام بطريقة صحيحة مبنيّة على نقل صحيح وعقل صريح مع مراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال.

هذه الواقعية اقتضت من ابن باديس الثبات في الكليات والتيسير في الجزئيات والحفاظ على الأهداف مع التنويع في وسائلها، ومن ثَمَّ الانتفاع بكل ما هو جديد بلا ذوبان، والتَّرحاب بكل شيء نافع وصالح، والاستياء من كل تعصّب ممقوت، وجمود مذموم، وضلال مَنكُور.